مفهوم القصة القرآنية

د/ يوسف حسن نوفل

حقق القصص القرآني غايات سامية في إطار ما صوّر من المواقف، وما تضمنه من معنى، وكان في ذلك مثلاً أعلى في عرض حقائق التاريخ، وفي الإشارة إلى معالم تاريخ البشرية، وصور سلوكها، وتأمل مواقف الأمم، برجالاتها ونسائها ، بما في ذلك من خير وشر، صلاح وفساد، وكان لهذا الفن القصصي فضل الكشف عما طمسته الأيام والسنون، ومحاه النسيان والتقادم، ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾[١٦٤ - النساء].

ولم يكن ذلك الاستدعاء التاريخي لبعض مظاهر القديم في جوانب منه ضرباً من التذكير العارض، أو التشويق السطحي، بل كان مثار توجيه ونصح وإرشاد، وموطن تذكير لأولي الألباب، ومثابة تقوية للعزيمة والهمة، فهو يؤنس الرسول الكريم ﷺ، ويسلّيه ، قال تعالى: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**، وقد كانت هذه الآية آخر آية في سورة يوسف، بعد أن استغرقت قصة يوسف السورة كلها، باستثناء آيتي الافتتاح، وباستثناء ما سبق الآية الأخيرةبدءاً من قوله تعالى تعقيباً على قصة يوسف: **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾** [١٠٢ - سورة يوسف].

وقامت القصة القرآنية بمهمة جليلة. هي التذكير العملي الواقعي الحيّ، تطبيقاً لقول الله تعالى: **﴿فذكّر بالقرآن مَنْ يخاف وعيد﴾**[٤٥ - ق].

ومنهج التذكير هذا، يتجلى في القصة غايةً ووسيلة معاً، وليس أدلّ على ذلك من تتبع ظاهرة عامة، في معظم قصص الأمم السابقة البائدة، هذه الظاهرة، هي بدء القصة بالعبرة منها، وهي الادّكار والاتّعاظ، فهذه جملة قرآنية تتكرر في القرآن الكريم أربع مرات وهي: **﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾**.

نراها في أربع صور في قصة أربع أمم هكذا.

- **﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر. كذّبتْ عاد﴾** [١٧-القمر].
- **﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر. كذبت ثمود﴾** [٢٢-القمر].
- **﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر. كذبت قوم لوط﴾** [٣٢-القمر].
- **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر. ولقد جاء آل فرعون النذر﴾** [٤٠-القمر].

وعلاوة على أن هذه الآيات كلها مكية، نجدها كلها في سورة القمر، ثم تتكرر في السورة عبارات عن «كذب» هؤلاء الأقوام، وسوق العذاب والنُّذُر لهم، كل ذلك في سورة عدد آياتها ٥٤ آية.

وهذا المنهج القصصي التذكيري، يتلاءم مع المنهج القرآني العام، المتمثل في الهداية والرحمة والإبانة:

- **﴿فإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾** [٢٠٤-الأعراف].
- **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾** [٩-الإسراء].
- **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾** [٨٢-الإسراء].
- **﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾** [٦٩-يس].
- **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾** [١٨٥-البقرة].

والاتباع:

- **﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾** [١٨-القيامة]

والتذكير:

- **﴿سنقرئك فلا تنسى﴾** [٦-الأعلى].
- **﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذّكروا﴾** [٤١-الإسراء].
- **﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾** [١-ص].
- **﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾** [٤٥-ق].

● ﴿وقرآن فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾ [١٠٦-الإسراء].

وضرب المثل:

● ﴿وقد صرّفنا في هذا القرآن من كل مثل﴾ [٨٩-الإسراء].
● ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ [٥٤-الإسراء].
● ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ [٥٨-الروم].

والتدبّر، وتثبيت الفؤاد:

● ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ [٨٢-النساء].
● ﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾ [١١١-يوسف].
● ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك﴾ [١٢٠-هود].

والإنذار:

● ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [١-ق].
● ﴿وصرّفنا فيه من الوعيد﴾ [١١٣-طه].
● ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى﴾ [٧-الشورى].
● ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به﴾ [١٩-الأنعام].

هذا إلى جانب التعقل والتفكر، والعلم...، والإخبار:

● ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ [١٠١ الأعراف]، ومثلها [٩٩-طه].

وهذا المنهج المتكامل من استحضار الأحداث والعبر، والتذكير، وتسلية الرسول وإيناسه والهداية والرحمة والإبانة، والإتباع، وضرب المثل، والتدبر، والإنذار وغير ذلك من أسرار المنهج الإلهي العظيم، استدعى أن يستند هذا الأسلوب العظيم، على مصطلح له اشتقاقه المتناسب مع الغوص في أعماق التاريخ، وتأمل سلوك الأمم والملوك والرعايا بما في ذلك من قصّ الأثر وتتبعه والنظر فيه: قصصت الأثر، واقتصصته، وتقصصته، وخرجت في أثر فلان قصصاً، قال تعالى: ﴿وقالت لأخته قصيه﴾[١١-القصص]، ﴿قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾[٦٤-الكهف].

ولقد أشرنا إلى الآية الأخيرة من سورة يوسف ﴿لقد كان في قصصهم...﴾، وكانت الآية الثالثة: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص...﴾، ويأتي التعبير نفسه مع سورة تتشابه مع سورة يوسف في اهتمامها بعرض قصة متكاملة تستغرق آيات السورة في معظمها، مع مقدمات وخواتيم موجزة، هذه السورة هي سورة الكهف، التي تبدأ القصة منذ الآية التاسعة بعد التمهيد الضروري، حتى الآية ٢٦، ثم ترد قصص أخرى، وفي أثناء ذلك نجد قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾[١٣-الكهف].

وتتوالى آيات القص:

في القصص القرآني تقوية للهمم وتوجيه ونصح وإرشاد

● ﴿إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ [٧٦-النمل].
● ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [١٧٦-الأعراف].
● ﴿فلما جاءه وقصّ عليه القصص﴾ [٢٥-القصص].
● ﴿قصصنا عليك..﴾ [١١٨-النحل]، [٧٨-غافر].
● ﴿قصصناهم عليك..﴾ [١٦٤-النساء].

وحملت سورة من سور القرآن الكريم اسم «القصص» وعدد آياتها ٨٨ آية.

وكان القصص الديني عملاً من رسالات الأنبياء، له غايته السامية العظيمة:

● ﴿ألم يأتكم رسل منك يقصون عليكم آياتي﴾ [١٣٠-الأنعام].
● ﴿إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ [٣٥-الأعراف].
● ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [١٧٦-الأعراف].

وفي تأمل هذه الآيات التي تضمنت غايات القص وغيرها، تبين ارتباط القص بغايات مهمة هي: «الحديث، والنّبأ، والخبر»

ومن «الحديث»:

● ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ [٩-طه]
● ﴿ونحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ [١٣-الكهف].

ومن الخبر:

● ﴿.. ونبلو أخباركم﴾ [٣١-محمد].

وهكذا نقف على معنى القصص القرآني المرتبط بغاية سامية، والمستند إلى مادة وفيرة، عمرها القرون المتعاقبة، وأن الحدث والحديث، والخبر، والنبأ فيها هو مما يعجز عن استيعابه راوٍ أو قصاص من البشر؛ لأنه يتطلب الاستقصاء إلى أبعد مدى، والتوغل إلى أقصى غاية؛ توظيفاً لهذا الاستدعاء التراثي البعيد، في تبليغ الرسالة، وتأدية الأمانة، أمانة النبيّ الذي اشتق لقبه من مادة النبأ والإنباء، وهي جزء من صميم القصص حيث:

(أنباء القرى) [١٠٠-هود]، (أنباء الغيب) [٤٩-هود]، و(نبأ موسى) [٣-القصص]، (ونبأ أهل الكهف) [١٣-الكهف] و«أخبار» أولئك جميعاً وغيرهم.

اللـــواء الأول
أو
سريتا عبيدة وحمزة

شعر / د. غازي مختار طليمات

شرفٌ بـــاذخُ السنى والسنـــاءِ في سرايـــا النبيّ حملُ اللـــواءِ
فـإذا مـــا حملت أوّل بنـــد كنت في الحرب أشرف الشرفـــاء
مَن كميّ النبيّ؟ من حـامل الـرا يـــة نـــوراً في الليلـــة الطخيـــاء
أتـــراه (عبيـــدة[1])الشهم أم (حمـــ زة) زين الفـــرســـان والشهـــداء
الكميّـــان تـــوءمـــان، فهـــذا لاجتيـــاز الحجـــاز والبيـــداء
وأخـوه من جـانب (العيص[2]) يفـري (السّيف) فـريـاً بـالصعـدة السمـراء
فهما يخفقـــان، هـــذا جنـــاح فـــوق طـــود، وذاك قـــرب الماء
والجنـــاحـــان طـــائر نبـــويّ مـــاج منـــه الفضـــاء بـــالأشـــذاء

***

امض بـالـركب يـا (عبيـدةُ) واصـدعْ بقضـــــاءٍ قضـــــاه ربُّ السماء
فـــالـرجـــال الـــذين حـــولك درع مـن ولاء، وعـــاصف من مضـــاء
هـــاجـــروا من ديـــارهم ليفـــوزوا بجنـــان نـــديـــة الأفيـــاء
هم ثمانـــون في الحســـاب، وألفـــا فيْصلٍ في تـــرائب الأعـــداء
وتلمّس (ثنيـــة المرّة) الوعـــــــ رة، فيهـــا جحـــافل السفهـــاء
كمنـــوا يـــرصـــدون كلّ دبيب في كثيب، ورفّـــة في فضـــاء
فـــرمـــاهم (سعـــدٌ[3]) بأول سهم راشـــه الحقّ بـــالتقى والـــوفـــاء
يـــا مُجاب الـــدعـــاء سهمك شق الـــد رب للـــزاحفين نحـــو الفـــداء

***

أسلمي يـــا قـــريش تسلمْ رجـــالٌ من فنـــاء، ونســـوة من سبـــاء
لن تصـــدي بما تســـوقين دينـــاً غمـــر الكـــون بـــالمنى والـــرجـــاء
واتـركِ الحرب يـا (ابن حـرب[4]) وكحّل بـــالهدى جفـن عينك الـــرمـــداء

فـــالجمـــوعُ التي جمعت غُثـــاء ... زَبَـــدٌ من جَهـــالـــة وخـــواء
زحفت والضـــلالُ يعقل منهـــا ... كلّ ســـاق بـــالـــرعب لا الإعيـــاء
والقلـــوب التي غـــزاهـــا شعـــاع ... من ضيـــاء، طـــارت عن الظلماء
طار عنها (المقداد)[٥] يقفو جناحيْ ... (عتبـــة)[٦] المازنيّ نحـــو الضيـــاء
وهـــوى المشركـــون خلف أبي سفـــ ... ـــيان أخـــزى خُطـــاً من الأُسراء

* * *

والجنـــاحُ الثـــاني يـــزّف شراعـــاً ... نبـــويّـــاً مع الـــريـــاح الـــرخـــاء
فـــوق هـــام المهـــاجـــرين، وأعظِمْ ... بجهـــاد الأعـــزّة النجبـــاء!
هم ثـــلاثـــون إن يُعـــدوا، ولكنْ ... إنْ يـــلاقـــوا تضـــاعفـــوا في اللقـــاء
قـــد تهادَوْا من جـــانـــب (العيص) حتى ... بلغـــوا (السّيف) بـــازغ الأنـــواء
وجـــدوا مـــا تـــرصّـــدوا، تلك عيرا ... ت قـــريش تُغـــذ في الصحـــراء
وأبـــو جهل قـــد أدار عليـــه ... من شـــديـــد الحديـــد درع وقـــاء
إنْ وقتـك الـــدروع سيفـــا ورمحا ... فهـي تعيـــا بنفسك الـــرعنـــاء
من يكـن خصمـــه هـــواه فسخفٌ ... أن يُجِدّ الســـــلاح للخصماء

* * *

وقف العسكـــرانِ، هـــذا يـــرامي ... بشـــواظِ الألحاظ أنكى رمـــاء
والفـــريق المرميّ يـــدفع عنـــه ... نـــافـــذاتِ الجفـــون بـــالإزراء
ســـاعـــةً، عمـــرهـــا سنـــونَ إذا مـــا ... عُـــدّ نبض القلـــوب في الأحشـــاء
فـــانبرى من بني جهينـــة (مجد[٧] ... يٌّ) يـــداوي مكـــامن الشحنـــاء
أطفأ الهيجـــة الغضـــوب فصـــان الشرك حتى يحين حَيْنُ القضـــاء
أيها المشركـــون ثـــوبـــوا إلى الله، ودوســـوا مطـــامع الكبراء
ليس مـــا يأفكـــون إلا شبـــاكـــاً ... نسجـــوهـــا من الخنى والـــدهـــاء
لـــو نثـــرتم أمشـــاجهـــا، ونفختم ... أصبح الشرك غيمـــة من هبـــاء

---

(١) هو عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة هو حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ.
(٢) العيص ناحية قرب المدينة، والسيف شاطىء البحر.
(٣) هو سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم في الإسلام، وبطل القادسية أيام عمر.
(٤) هو أبو سفيان. (٥) هو المقداد بن عمرو البهراني
(٦) هو عتبة بن غزوان المازني، وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليلحقا المسلمين.
(٧) هو مجديّ بن عمرو الجهني وكان موادعاً للفريقين، فحجز بينهما.